رأس المال الأخلاقي

كان من أهم العوامل التي مكنت أمريكا من قيادة شعوب كثيرة بعد الحرب العالمية الثانية هي القوة الأخلاقية التي كانت تملكها حينئذ وانعكست في قيامها بمساعدة الدول الحليفة والمعادية على إعادة بناء اقتصادياتها التي دمرتها الآلة العسكرية الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية. لكن أمريكا خسرت ما كان لديها من رأس مال أخلاقي على مدى سنوات الحرب الباردة وما تلاها من عقود غلب عليها النزاع، وذلك بسبب حروبها غير المبررة في كوريا وفيتنام ولاوس وكمبوديا والبلاد العربية وأفغانستان وأمريكا الجنوبية، ونتيجة لقيامها بدعم نظم حكم مُستبدة في العديد من دول العالم الثالث، وتأييدها السافر لإسرائيل ومدها بالسلاح، وحمايتها من قرارات الشرعية الدولية، بينما كانت ترتكب الجرائم بحق الإنسانية على أرض فلسطين ولبنان.

رأس المال الأخلاقي مفهوم اخترعته للتعبير عن قيمة تتصف بها ثقافات بعض الشعوب بسبب نشأتها البسيطة وجوهرها الديني الذي يدعو إلى التسامح بين الناس، والتعايش بسلام على اسس من المساواة والعدل والاحترام المتبادل. وتقوم الشعوب بتنمية هذه القيمة، من دون وعي، عبر مسيرتها التاريخية وتعاملها مع غيرها من شعوب أثناء فترات السلم والحرب على السواء. وتلعب القيادات الفكرية والثقافية عادة الدور الرئيسي في غرس تلك الثقافة في نفوس الأطفال وتنميتها في المجتمع عبر المدارس وأماكن العبادة، ومؤسسات النشر والإعلام. أما القوة الأخلاقية فتعكس وجود رأس مال أخلاقي في المجتمع، وتوفر إرادة مجتمعية على توظيفه لمساعدة الغير من الناس، والتعامل معهم بطريقة تحترم كرامتهم وإنسانيتهم. ويمكن القول أن الشعوب التي عاشت في ظلال حضارة الزراعة التقليدية، وبقيت قريبة منها تملك رأس مال أخلاقي كبير، لكنها لا تملك قوة أخلاقية بسبب ضعفها الاقتصادي والعسكري، وتشتت ولاءاتها بين العائلة والعشيرة والمذهب الديني والوطن، وجهل قياداتها السياسية بشكل عام.

فيما كانت أمريكا تستحوذ على المزيد من القوة العسكرية وتحارب في الهند الصينية في النصف الثاني من القرن الماضي، كانت ثقافة الاستهلاك تغزو الأسواق وتلون ثقافات مختلف فئات الشعب الأمريكي بلون رمادي باهت؛ الأمر الذي جعل جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات الأمريكية، والنزعة الاستهلاكية التي تطغى على الثقافة الشعبية تتسبب في خسارة أمريكا لمعظم ما كان لديها من رأس مال أخلاقي وقوة أخلاقية. إذ حين تطغى المصلحة على ثقافة النخب المهيمنة على السياسة والاقتصاد، وتتسلل النزعة الاستهلاكية إلى الثقافة الشعبية، فإن رأس المال الأخلاقي يغدو ضبابيا، ويتوه في ظلمات الجشع والرغبة الجامحة في جمع المال وتكديس الثروات. وهذا يعني أن توجه الاثرياء نحو البذخ والاسراف، واتجاه النخب المهيمنة على المجتمع نحو السيطرة على الضعفاء والفقراء واستغلالهم، يجعل المجتمع والدولة يخسران ما لديهما من رأسمال أخلاقي وقوة أخلاقية.

في المقابل، كانت أوروبا خلال سنوات الحرب الباردة تخسر المزيد من قوتها العسكرية النسبية بسبب شعورها بالأمن والاستقرار، وتكسب في الوقت نفسه المزيد من رأس المال الأخلاقي والقوة الأخلاقية بسبب تاريخها الملطخ بدماء الأقليات التي اضطهدتها والشعوب التي استعمرتها ردحا

طويلا من الزمن. لكن أزمة الديون وسياسة التقشف، وتزايد نفوذ النخب الاقتصادية ذات الميول اليمينية الاستغلالية في السنوات الأخيرة تسبب في خسارة أوروبا لجزء كبير مما كان لديها من رأس مال أخلاقي. مع ذلك، ما تزال أوروبا تملك القدرة على استعادة معظم ما خسرته من رأس مال أخلاقي، لأن الجشع يتركز في النخب الاقتصادية والسياسية دون سواها، ولأن الأزمة المالية هي أزمة عابرة مهما طالت، ولأن هناك تيارات ثقافية نامية ترفض قيم الجشع، وتدعو إلى محاربة الفقر والتعاطف مع الضعفاء، وحماية البيئة وحقوق الإنسان.

أما فيما يتعلق بأمريكا فإنه من غير المتوقع أن تستعيد ما خسرته من رأس مال أخلاقي وقوة أخلاقية في المدى المنظور، وذلك بسبب طغيان ثقافة الاستهلاك والتبذير على الثقافة الشعبية من ناحية؛ وهيمنة المال على السياسة هيمنة شبه كاملة من ناحية ثانية؛ واتجاه النخبة الاقتصادية إلى تقديس المال وممارسة الاستغلال بشكل منهجي على نطاق واسع. وفي الواقع، لم يعد بالإمكان التراجع عن ثقافة الاستهلاك والتبذير في أمريكا بسبب اعتماد النمو الاقتصادي على الاستهلاك الذي يشكل اليوم نحو 70% من الاقتصاد الأمريكي. أما فيما يتعلق بالقوى الاقتصادية المتنامية في آسيا، فإن تواجد رأس مال أخلاقي في ثقافاتها كان ضعيفا منذ البداية، فيما تسببت عمليات التصنيع وتحويل الدولة برمتها إلى شركة تجارية عملاقة في تلاشي ما كان لديها من قوة أخلاقية. وهذا يعني أنه ليس من المتوقع أن تسعى المجتمعات هذه إلى تنمية رأس مال أخلاقي لا تعرف عنه الكثير، خاصة وأنها تسارع الخطى نحو تقليد ثقافة أمريكا الاستهلاكية التي تدمر روح الإنسان قبل أن تدمر جسده وكرامته، وتحكم عليه بحياة قلقة دائمة التنقل بين الخوف والطمأنينة.

وفي غياب قوى عالمية تملك رأس مال أخلاقي وقوة أخلاقية كبيرة سيكون من الصعب إقامة نظام عالمي عادل يهتم بالفقراء والمحرومين، ويعمل بأمانة من أجل السلام والاستقرار والطمأنينة في العالم. لذلك كان على الشعوب التي ما تزال تملك رأس مال أخلاقي وقوة أخلاقية أن تعمل على تنمية ما لديها من القيم هذه، وأن تقوم بطرح قضية رأس المال الأخلاقي والقوة الأخلاقية كمقياس لاختيار القيادات التي تتولى مهام إدارة مؤسسة الحكم والمنظمات الإقليمية والدولية، وذلك من اجل ضمان حسن العمل في تلك المؤسسات والمنظمات وأخلاقيات القائمين عليها.